على هامش الحرب

الطابور الخامس فى القرآن

المنافقون

للأستاذ عبد الرزاق إبراهيم حميدة

— ٤ —

لم ظهر النفاق بالمدينة ؟ — رأس المنافقين — أعمالهم وصفاتهم زمن السلم — إظهار الاسلام وإخفاء الكفر الطعن فى النبي وآله — السعى فى التفريق بين المسلمين

قدمنا فى المقال الثانى والثالث أن الجماعة الأولى من الطابور الخامس فى القرآن هم اليهود ، وذكرنا بتفصيل مقدار خطرهم وضررهم على النبي ودينه وأصحابه ، والنوع الثانى أو الجماعة الثانية هم المنافقون :

كان بجانب اليهود جماعة من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب تعمل جهدها سراً وجهراً على إضعاف الإسلام وتود أن يفنى المسلمون وتذهب ريحهم . أولئك هم المنافقون الذين لم يكن لهم وجود وعمل إلا بعد الهجرة ، ويقول اللغويون إن النفاق كلمة لم توجد فى الجاهلية ، وإن القرآن قد جاء بها وصفاً لطائفة تُبْطِنُ الكفْر وتُظْهِرُ الإيمان رغبة فى الاستفادة من مغانم المسلمين ، وفراراً من أثر الهزيمة إذا دارت على المؤمنين دائرة الحرب ، وأملاً فى استئصال النبي ودينه بطريقة مستورة

أما سبب ظهورهم بالمدينة دون مكة ، فهو أن النبي قام يدعو إلى دين الله بمكة وهو وحيد ، فعارضه أكثر أهلها وبخاصة الأشراف منهم حتى أشراف عشيرته الأقربين ، فلم تكن بالدين تخلّفوا عنه — وهم أهل الشرف والعزة بمكة — حاجة أن ينافقوا ؛ وباعد بينهم وبين الدخول فى الإسلام سراعاً خوفهم من ضياع مركزهم الأدبي وسلطانهم القَبَلِيّ وتمسكهم بما كان عليه آباؤهم من دين وعادات

وكان الأمر على العكس من ذلك بالمدينة ، فقد أسلم الكثيرون من سادتها وكبرائها وتبعهم أكثر أهلها ، وزاد الإسلام فيها قوة بمن هاجر إليها من السابقين الأولين من المهاجرين ، وربّا عدد المسلمين فيها على من عداهم ، فشعر المتخلفون عن الدين الجديد بضعفهم وعدم استطاعتهم المجاهرة بما فى قلوبهم ، ورأوا أن النفاق أسلم عاقبة وأشد خطراً وأعظم أثراً ، ورأوا من الحكمة أن يقولوا : « آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » ، وأن ينتظروا الفرص السانحة لطعن المسلمين كلما كان ذلك ممكناً

الاجتماعية والخلقيـة والوطنية المباشرة ، التى لا تتفق وطبيعة الفنون الحرة

وعلى ذكر الدعوات الوطنية ألاحظ أن أغانينا وأناشيدنا الوطنية التى تذاع جميعاً وبدون استثناء تدل على فقرنا فى الروح الوطنية العالية من حيث يريد مؤلفوها وملحنوها ومغنوها إظهار هذه الوطنية . فهى فى ألفاظها ومعانيها وتلحينها ضجيج أجوف يدل على وطنية « قشرة » ليست مطمئنة إلى عمقها وهدوئها و « طبيعتها » . والوطنية الرشيدة العميقة المطمئنة لا تحتاج إلى كل هذا الضجيج فى اللفظ والمعنى ، ولا تستمد القوة من الصياح والزعيق ، إنما هذه أشبه الأشياء بقوة الضعيف الذى الذى يحس ضعفه فيملأ الدنيا صياحاً ، وينفخ أشداقه ، ويطوح ذراعيه فى الفضاء لإرهاب خصمه قبل أن يشتبك معه فى نضال يشعر بضعفه عنـه . وهى لا تزيد على قول « فتوة الحارة » : « والله ما تقرب لى لأخرشمك » .

والرجل القوى حقاً لا يحتاج إلى هذا التهديد !

ولم ألمس فى أغنية واحدة مما أذيع حقيقة الوطنية التى لا يحسها صاحبها لفرط تغلغلها فى نفسه ، وعمق جذورها فى شعوره ، حتى لكأنها طبيعة كامنة فيه ، إنما هى ألفاظ محشودة ، كما يجمع الخائف جميع أسلحته ويكومها أمامه ، بدل أن يدعها فى مكامنها ويأخذ منها ما يحتاج إليه فى اللحظة المناسبة

وإن أغنية واحدة يحدث فيها المترنم بها نفسه عن ملاعب صباه فى وطنه ، ومطارح أمانيه ، وذكريات أجداده ، ويتغنى بطبيعة بلاده الجميلة وشمسها وخضرتها ، لأفعل فى غرس بذور الوطنية وإنمائها فى نفسه وإحساسه بمعنى الوطن من السيوف والبنود واللهيب . . . إلى آخر هذا الضجيج !

ولن يفهم مثل هذا التوجيه إلا القليلون ، وإنما كل رجائنا متعلق بهؤلاء القليلين !

(حلوان) سيد قطب

وكان رأس المنافقين بالمدينة عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ، وكان شريفاً من أشراف يثرب ، يطمع فى أن تكون له السيادة والحكم فيها ؛ فلما جاء النبي إليها وخضع أهلها لسلطانه ودانوا بعبادته وعقيدته ، ضاعت الفرصة من ابن أُبَيّ ، وأحزنه أن يكون ضياع سلطانه المنتظر ، وخيبة أمله فى السيادة ، آتياً من رجل غريب عن يثرب ، أخرجه قومه ، وشردوا أصحابه فى الآفاق . ورأى من الحكمة أن يُدارى ، وأن يدخل فيما دخل فيه الأكثرون ظاهراً ، وإن لم يستطع أن ينزع من قلبه المرض الخبيث الذى ملأه نفاقاً ، وسَالَمَ الرسولَ ، وآمن بلسانه وفى نفسه ما فيها ، حتى إذا حدث ما يدعو إلى إظهار الكفر سارع فيه ونال من المسلمين بلسانه ومكايده ، وخذلهم فى الحرب ووقت الشدائد .

وقد بين القرآن صفات المنافقين عامة ، وهى صفات تدل على أنهم كانوا من أشد أنواع الطاعون الخامس أذى ، وكان منهجهم فى السلم أن يظهروا الإيمان ، وأن يطعنوا فى النبي وآله ويفروا من حكومته ، ويرفضوها ، وأن يفرقوا بين المؤمنين

أما الأمر الأول ، وهو حقيقة نفاقهم فقد ذكر بتفصيل فى الآيات الكريمة : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا . وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً . ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون »

وكانوا إذا جاءوا رسول الله أقسموا أنهم يشهدون أنه مُرسل من ربه ليستروا نفاقهم بهذا القسم . وكان ابن أُبَيّ رجلاً جسيما صبيحاً فصيحاً ذلق اللسان ، وكان قوم من المنافقين فى مثل صفته ، يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيستندون فيه ، ولهم جمارة المناظر وفصاحة الألسن ، فكان النبي ومن حضر يعجبون بهيأتهم ويستمعون إلى كلامهم ، فنزل قوله تعالى فى السورة المسماة باسمهم : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسولُ الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدُّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبُك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنَّدة ، يحسبون كلَّ صيحة عليهم ، هم العدوُّ فاحذرهم قاتلَهم اللهُ أنى يؤفكون »

وأما طعنهم فى النبي فكان كثيراً ، وكان من الطعن الذى لو ثبت لكان هادماً للرسالة ، وقاضياً على صاحبه ، فكانوا يتهمونه بأنه يأخذ بعض الغنائم خفية ويستأثر به على غير علم من أصحابه . روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر مما أُصيبَ من المشركين ، فقال بعض المنافقين : لعل رسول الله أخذها ، فنزل قوله تعالى : « وما كان لنبي أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »

ولم يسلم آل البيت من مطاعنهم ، فقد اشتركوا فى حديث الإفك ، وادعوا على عائشة أنها خانت النبي ، وكان الذى تولى كبر هذا الإفك من المنافقين ، وهو ابن أبي

أما حديث الإفك فهو أن الرسول الكريم كان يأخذ معه بعض نسائه فى الغزوات ، وكانت عائشة معه فى غزوة بنى المصطلق ، وكانت صغيرة السن ، خفيفة الجسم ، فنزل الجيش ذات ليلة ، ثم ارتحل ، وحمل هودج عائشة على جملها ، ولم يدر حاملوه إن كانت فيه أم لا .

وكان يجيء وراء جيش المؤمنين صفوان بن المعطل يحمل ما يكون قد تخلف من الجيش ، فلما رآها غض بصره ، وأركبها ناقته ، وعاد بها إلى المدينة . فلما مر بابن أبي قال : من هذه ؟ قالوا عائشة . فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، ثم قال : امرأة النبي باتت مع رجل ثم جاء يقودها ! وانتشرت مقالته ، وسمع النبي الخبر ، فأحزنه ذلك أشد الحزن ، لأنها كانت أحب نسائه إليه ، فهى بنت الصديق صاحبه فى الغار ، ورفيقه فى الهجرة ، وهى التى اختارها الله لنبيه ، وزوجها له بوحيه . فما هذا ؟ سبحانك ! هذا بهتان عظيم !

استشار النبي أصحابه فى الأمر ، فأشار بعضهم بطلاقها ، وظن بعضهم خيراً ، ولم يشك فى طهارة بيت النبوة ، ومرضت عائشة زمناً وهى لا تدرى من أمر هذا الإفك شيئاً . وحزن أبو بكر أشد الحزن ، وحزن المسلمون حزناً عظيما ، وتطرق الشك إلى نفوس بعض الناس . فكيف يكون الموقف إذا تطرق الشك إلى بيت النبوة ؟ وما يكون مركز المسلمين ، وهم عرب ، للعرض عندهم شأن أى شأن ؟ وهل يبقى ضعاف الإيمان أتباعاً

لمحمد إذا ثبت على زوجته ما رُميَتْ به من زور وبهتان ؟ لا بد من وحي يبرئها ، ويثبت طهارتها ، ويلعن من افترى عليها ، وبخاصة رئيس المعصبة التي جاءت بالإفك ، وهو رأس المنافقين ، ونزل قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عُصبةٌ منكم ، لا تحسبُوهُ شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولّى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيم » فثبتت عفة عائشة وطهرها ، وحدّ الرسول من جاءوا بالإفك حد القذف ، ولعنهم الله في الدنيا والآخرة ، إلا الذين تابوا . ورد الله كيد ابن أبي في نحره ، ونجا الإسلام من الفتنة التي أرادها بالطعن في الصديقة بنت الصديق .

وكانوا يأبون الاحتكام إلى النبي وإلى كتابه إلا إذا كان على وفق هواهم . وفي ذلك يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسول ، رأيتَ المنافقين يَصدُّونَ عنك صدوداً » . وأبى الله أن يقبل منهم إيماناً إلا إذا قبلوا حكومة الرسول عن طيب خاطر . فقال : « فلا وَرَبِّك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بينهم ، ثم لا يَجِدُوا في أنفسِهم حَرَجاً مما قَضَيْتَ ، ويُسَلِّموا تسليماً »

وكانوا يستمعون من المؤمنين ويعرفون أسرارهم وخططهم الحربية ، وما في نفوسهم من ثقة بالفوز أو خوف واستشعار ، ويذيعون ذلك ويتحدثون به ، فيبلغ الأعداء ، فيكون في ذلك مفسدة ؛ قال الله سبحانه : « وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو رَدُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لَعَلِمَهُ الذين يَستنبِطونه منهم »

وكان من أسباب نفاقهم أنهم كانوا يودون الربح من وراء هذا النفاق ؛ فإن انتصر المؤمنون قاسموهم في المغانم ، وإن انتصر المشركون انحازوا إليهم ، وبينوا أن ذلك كان بفضل نفاقهم ، وأولئك هم الذين وصفهم الله النبي الكريم في سورة النساء فقال : « الذين يتربصون بكم ، فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نستَحوِذْ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ »

وكانوا « يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً » ويعدون الذين كفروا من أهل الكتاب أن يكونوا معهم على النبي وأن يخرجوا معهم من المدينة إذا أخرجهم المؤمنون منها ، كما بين الله سبحانه ذلك في سورة الحشر ، قال سبحانه « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب » وهم بنو النضير « لئن أُخرجتم لنَخرُجَنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم . والله يشهد إنهم لكاذبون » فقد أخرج بنو النضير من المدينة ولم ينصرهم المنافقون ولم يخرجوا معهم بل بقوا في المدينة يخذلون المؤمنين في الحرب كما خذلوا بني النضير ، ويلتمسون المعاذير لقعودهم عن الجهاد في سبيل الله كما سيأتي بيانه

وكانوا « لا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ، ولا يُنفقون إلا وهم كارهون »

ولم يَسْلَمِ النبي من سخطهم عليه في توزيع الصدقات . فكانوا يتهمونه بعدم العدالة في تفريقها إذا لم ينلهم منها شيء « ومنهم من يَلمِزُكَ في الصدقات . فإن أُعطوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون »

وكانوا يتهمون النبي بالغفلة ، وأنه يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ، وهم الذين قال الله فيهم : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُنٌ ، قل أُذُنُ خَيرٍ لكم ، يؤمنُ بالله ويؤمنُ للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم »

وكانوا يسمعون آيات الله ويهزءون بها ، كما كان يفعل أهل مكة من المشركين . وكانوا يفعلون ذلك على مسمع من المؤمنين وفي مجالسهم ، فنهى الله المؤمنين عن مجالستهم ما داموا على هذا الاستهزاء ، وأوعد الكافرين والمنافقين أن يجمعهم في جهنم ، وقال للمؤمنين : « وقد نزّلَ عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم — في الإثم لا في الكفر — إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً »

وكان منهم قوم ماهرون في إخفاء النفاق وستر الكفر إلى درجة عظيمة ، تخفى أمرهم حتى على النبي ، وهو اللبق الفطن ، الذي لا يعدله أحد ذكاء وقوة فراسة ، وشدة فطنة ، وخاطبه الله فيهم قائلاً : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم »

وفي غزوة بني المصطلق أرادوا أن يفرقوا بين المهاجرين والأنصار ، وأوعد عبد الله ابن أبي المهاجرين أن يخرجهم من

المدينة . وتفصيل ذلك أنه بعد انهزام بنى المصطلق بقيادة رئيسهم الحارث بن ضرار عند ماء يقال له « المريسيع » فى السنة السادسة من الهجرة ، تزاحم مهاجرٌ وأنصارى على ماء ، فلطم المهاجرُ الأنصارى ، وكان هذا حليفاً لابن أبى ، فلما سمع ابن أبى الخبر أخذته حَمِيَّة الجاهلية ، وأراد أن يغرى الأنصار بالمهاجرين ، وقال : والله ما صَحِبْنا محمداً إلا لنُلطم ! والله ما مثلُنا ومثلُهم إلا كما قيل : سَمِّن كلبَك يأكلْك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . وعنى بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله . ثم قال لقومه : ماذا فعلتم بأنفسكم ؟ أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد . فسمع بذلك زيد ابن أرقم وهو حَدَث ، فقال له : أنت والله الذليل القليل فى قومك ، ومحمد فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين . فخاف ابن أبى العاقبة . وأخبر زيدٌ رسول الله الخبر ، فأراد عمر أن يضرب عنق ابن أبى ، فقال رسول الله : إذن ترعد أنف كثيرة بالمدينة . أليست هذه النتيجة التى تحاشاها الرسول هى ما يسعى إليه المنافقون ؟ فاقترح عمر أن يقتله رجل من الأنصار . فقال النبي الكريم : فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ ثم قال الرسول لعبد الله : أأنت صاحب هذا الكلام ؟ فحلف بالله ما قال ، وإن زيداً لكاذب . ولكن الله كذبه وصدق زيداً بقوله : «هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى يَنْفَضُّوا ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلَّ . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون»

هذه أعمال المنافقين ومكايدهم ، وغايتهم منها استئصال الإسلام وطرد النبي من المدينة ، وتنفير الناس من دينه بإشاعة السوء عنه وعن أهله ، وإنشاء ذلك المسجد آخر الأمر ليدبروا فيه دسائسهم، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، وانكشفت حقائقهم ونَجَا المسلمون من شرهم ؛ ثم نُهُوا عن مصافاتهم والانخداع بأقوالهم. أما أعمالهم التى رغبوا أن تجر الويلات على المسلمين فى الحرب فوعدنا بها العدد القادم .

عبد الرزاق ابراهيم حميدة

نجوى !

عاصفُ مَلال . . . !

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

سَئِمْتُ مُقامِيَ فَوْقَ الذُّرَا . . .
فَأَيَّانَ أَمْضِي غَدًا يا تُرَى ؟!
سَئِمْتُ وَدَوَّى بِقَلْبِي المَلالُ
كَمَا عَاصِفٌ فى الدُّجَى زَمْجَرَا
أَمَامِي ضَبَابٌ ، وَخَلْفِي ضَبابٌ
وَأُفْقِيَ غَشَّى عَلَيْهِ الكَرَى
فَلاَ فى السَّمَاءِ أَرَى وَمْضَةً
تُعَزِّى أَسَايَ ، وَلاَ فى الثَّرَى
وَحَوْلِي حَضِيضٌ ، بِأَوْحَالِهِ
تَخَبَّطَ فى الإِثْمِ رَكْبُ الوَرَى
وَحَتَّى ضِفَافُ الرُّؤَى عِفْتُهَا
فَمَا فى حِمَاهَا لِرُوحِي سُرَى
وَحَتَّى الخَيَالُ الَّذِي هَزَّنِى
وَأَرْعَشَ لِي سِحْرُهُ المِزْهَرَا ؛
تَبَرَّمْتُ يا جِنُّ ، فامْضِي بِهِ
رُفَاتًا مِنَ الصَّمْتِ لَنْ يُنْشَرَا !
وَمَا عَالَمُ الشِّعْرِ هٰذَا الفَسِيحُ
سِوَى طَيْفِ حُزْنٍ بِصَدْرِي سَرَى
سَئِمْتُ ! وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ سَنًا
عَلَى ظُلْمَةِ الرُّوحِ قَدْ نَوَّرَا
مِنَ الحُبِّ ! أَوْ مِنْ فَتَاتِى الَّذِي
يُنَمْنِمُ لِي فى سُفُوحِ الذُّرَا . . .